العرب في التاريخ

١ معنى اسم العرب

اختلف لغويو الناطقين بالضاد ، كما اختلف علماء الغرب ، في معنى اسم العَرَب . وحسبك ان تتبع اي كتاب شئت من مصنفات اللغة والتاريخ لتقف على تضارب الآراء في هذا الصدد . على اننا نجمل هنا بعض هذه المذاهب وهي اقربها الى الحق

قال بعضهم بان العرب مشتق من مادة ع ر ب وذلك ان العَرْب بمعنى غروب الشمس اصلها العَرَب بفتح العين المهملة واسكان الراء . والعين محدثة في العربية ، اذ لا تُرى في سائر اللغات السامية اخوات العربية . وكل كلمة عَدَّتانيةٍ فيها غين معجمة ، تقابلها كلمة اخرى هي بالعين المهملة في سائر اللغات الاخوات . ثم قد يقابلها حرف آخر ، لكن الحكم على الاغلبية فمعنى العرب سكان البلاد الغَرْبية بالنسبة الى ارض الفراتَيْن التي يذهب بعضهم الى انها مهد البشر

ومعنى العرب ايضاً الأُمة السمراء اللون او السوداء اللون لان لون المغرب بعد زوال الشمس السواد ، كما ان لون مطلع الشمس البياض . والعَرَب كثيراً ما تسمّي اللون الاسود بلفظ مشتق من الغَرَب ، قالوا : غَرِب الشيء (بكسر الراء) يغرب غَرَباً (بالتحريك) : اسود . والغُراب للطائر الاسود والغُربة عن الوطن سواد من باب التشاؤم واسود غربيب اسود حالك . ولون السواد اي السمرة ظاهر في كلمة العربي اللون اي اسمره . فقد قالوا : اعرب الرجل : وُلد له ولدٌ عربي اللون

وكثيرون من علماء الالمان وفي مقدمتهم جسنيوس يقولون ان العرب لفظ مشتق من عرب المكان بمعنى محل واجدب أو خرب ومادة ع ر ب بهذا المعنى قد ماتت في العربية لكنها موجودة في الارمية والعبرية . والعَرَبة في هاتين اللغتين : الصحراء والبيداء فقولك : العرب كقولك ساكن العَرَبة كما قالوا البدو وهم يريدون سكان البدو اي البادية على مثل هذا القياس

على ان عرِبَ يعرَبُ كعلم يعلم موجود في قولهم عربت المعدة تعرب اي تغيّرت وفسدت . واظن ان معناها الاول كان للمكان ثم نقل الى مكان الطعام من الانسان اي الى معدته . واذا اصاب الانسانَ العَرَبُ فرغت معدتهُ . وقد اثبت الطباء اليوم ان بلاد

العرب كانت في سابق العهد كثيرة الخيرات والارزاق نخل بها من نوائب الزمن بتغير الهواء وتقلب حالات الجو من برد وحرّ، ما أكتسح عمرانها فصارت فيها تلك الفلوات والقفار. فبلاد العرب هي البلاد المتغيرة من حالة الخصب الى حالة المحل كما سترى ذلك. وهذا التأويل لاثبات حقيقة لم تجل الاّ في هذه السنين مما يدل على ان اللغة الضادية حفظت لنا اصول الفاظ لا ترى في اي لغة سواها. فرأينا اذاً رأي العلماء المتأخرين في هذه الايام اي ان معنى العرب: «سكان البلاد القفرة» وقد نشأ محلها من تقلبات الحالة الجوية»(١)

٢ من هم العرب؟

من هم العرب؟ — هم قوم من الساميّين مسكنهم بلاد العرب، وتسمى جزيرة العرب او عَرَبَة، بلفظة واحدة، على ما ذكرها ياقوت واللغويون اي Arabie

وقولنا قوم من الساميين يدفعنا الى ان نعرّف هؤلاء الناس الذين منهم اجدادنا. واحسن من عرفهم الاب لغرنج الدومنكي P. M. J. Lagrange وقد اتفق العلماء على استصوابه واستحسانه. قال ما هذا معناهُ:

«يمتاز الساميون في التاريخ بانهم كتلة بيّنة ظاهرة وقد اجمع جملة العلم على عدّها اليوم عدّاً يميزها عن غيرها. وهي تشمل الاشوريين البابليين والكنعانيين والارميين والعرب. وكذا قل عن قبائل تارح واسرئيل واخيه ادوم وعمون وموآب وأُلد الاعمام. هذا فضلاً عن الطراء الفنيقيين المتفنين في الربوع المجاورة للبحر المتوسط والمستعمرين الذين اقاموا في البلاد الكوشية (وتسمى اليوم اثيوبية) واذا قلنا قوم كذا وقوم كذا فلا نريد ان ذلك القوم لا يشوبهُ خليط من قوم آخر وذلك باتفاق المؤرخين الاثبات كلهم. — والتاريخ لا يعرف اليوم ان يقول ان الشعب الفلاني المختار من صُلب فلان من غير ان يمتزج بنسل صُلب آخر ... بل و يصعب على ابناء المخذ الواحد ان يتنمّي كلهُ اجمع الى دم واحد. فقبائل العرب ذات الاباء والنسب الصريح المحض لا تخلو من غربان (اسيد الناس سودا)... والايطالي والاسباني والفرنسي هم بقايا لاريب فيها من الوحدة الرومانية. فالالسنة المعروفة بالسامية في عهدنا هذا هي: الاشورية البابلية، والارمية، والعربية

(١) راجع المجلة الفرنسية Revue de Synthèse Historique XXXIV, No 102—100 ومعجم جنبوس العبري اللاتيني في مادة ع ر ب. ومعجم التوراة لفيكوروه — F. Vigouroux Dict. de la Bible ومعجم بان سمث السرياني اللاتيني

والكوشية (الاثيوبية) والكنعانية (وتنطوي على العبرية والفنيقية والموآبية) و يشابهُ بعضها بعضاً اي مشابهة حتى انهُ يجوز لك ان تنظر اليها نظرك الى شظايا متطايرة من لغة واحدة . وعليهِ عاش الساميون معاً في عهد من العهود واتصل بعضهم ببعض اكثر مما تذكرهُ لنا الانباء المدوَّنة التي بلغتنا . ولذلك اذا قلنا « الساميّة » فهذا اللفظ يقع على جماعة او طائفة من اللغات ، وليس على جميع اقوام . » اه كلام العلامة الدومنكي (١)

٣ خصائص الساميين وموطنهم

لا تعرف هذه العشيرة الكبرى بوحدة لغاتها وحدها ، بل بنوع اخص بحضارتها ومزاياها للابتداع وبمأثوراتها

وموطنها الحقيقي ، على ما يذهب اليهِ علماء هذا العصر ، جزيرة العرب . فقد كانت مصدر أمم شتى في دهور مترامية الآفاق . والروايات القديمة المأثورة عن السلف والمدوَّنة في صحف الاجر تنقل لنا ان الساميين طرأوا من تلك الجزيرة فكأن تلك الارجاء كانت بحراً خضمًّا تقذف امواجهُ بالام ، فتمتدّ وتنبثّ على التوادي شمالاً وجنوباً شرقاً وغرباً

فالذين اكتسحوا ديار كلدية ، والعراق ، واشور ، وفنيقية ، وفلسطين ، خرجوا من عربة ، كما خرج بعدهم في صدر الاسلام ، تلك الاقوام التي مدَّت ظلَّ سطوتها في العصور المتوسطة من سواحل الاوقيانوس الاتلنتي ، المعروف عند العرب ببحر الظلمة (٢) الى بحر الهند

واول من صرح بهذا الرأي من المحدثين ، ودافع عنهُ ، الدكتور هوغو وينكلر (٣) فقال ما مخصلهُ :

---

(١) راجع كتابه Le Père Marie Joseph Lagrange O. P. - Etudes Sur les Religions Sémitiques 2e Edition pag. 41 — 42. وقد اشرنا الى ما حذفناه من كلامهِ بنقط ثلاث اكتفاء بالزيدة منه

(٢) اختلف المربون في نقل اسم هذا المحيط فمنهم من قال البحر او الاوقيانوس الاتلانتيك منهم الاتلانتيكي وطائفة الاطلانتيق الى غيرها . والصواب ما رويناه نسبة الى أتلاس او اتلانتوس من آلهة خرافات اليونانيين . والعرب صحفوا اللفظة بصورة قريبة هي بلاية او ما يشابه هذه الصورة من الالفاظ في الكتابة والاصل (اتلانت) فكتبوها في صدر الاسلام (اتلاة) بياء كما كانوا يجوزون ذلك في العهد المذكور . ولم يكتفوا بهذا بل اهملوا تنقيط النقطة فاختلطت الالف بما يليها فاصبحت بهذه الصورة (للاه) وحينئذ كثرت القراءات على مألوف العادة فوردت في الكتب العربية في ضبطها والقديمة في تأليفها كما ترى : لِلاية ولِلاية ولِلاية ولِلاية ولِلاية ولِلاية والبلاة الى ما لا يحصى ضبطه . لهذا يحسن ان يقال المحيط الاتلنتي او الاتلانتي اذ هو يقرب من الاصل المعرب عنه ومن التعريب القديم الذي وضع في اول العهد به

(٣) Die Völker Vorderasiens. Von Dr. Hugo Winckler

« عربة (اي شبه جزيرة بلاد العرب) واقعة في وسط العالم السامي ، وتوع كتلة قارة يتقاذف ما فيها على اطرافها . والقلوات لا تمكن من ان تطعم سكانها تدفعهم حياتهم البدوية الى الظعن بعيداً . ففي عهدنا في غرة المائة التاسعة عشرة صعدت عنزة وشمّر الى الشمال الى تخوم بادية الشام ، وجميعنا نعلم تاريخ الاسلام وانتشاره وكانت قد تقدمته دولة الانباط والغساسنة . وهذا التدافع والتظاعن من عربة يقع بين الف سنة والف وخمسمائة سنة . وعليه يحق لنا ان نضع رحلة الاريين من موطن في عربة نجهله اليوم ، في نحو سنة ١٥٠٠ قبل المسيح . وكان الظاعنون الكلديين او الكلدان . وكانت الطارئة الكنعانية اشد واقوى فاجتاحت ديار مصر واممنت في فتوحاتها حتى هبطت إسبانية (في نحو سنة ٢٥٠٠ ق م) وهذا اصدق مثال كما انهُ اول مثال لما حدث بعد ذلك من من الفتوحات الاسلامية . وكذا يقال عن الاشوريين البابليين ، فان الموجة البشرية اندفقت بين سنة ٣٥٠٠ و ٢٥٠٠ من عربة واغرقت الحضارة[1] القديمة الشمرية[2] ، بعد ان اقتبست عنها اسلوبها في الكتابة . وهنا نتيهُ في ظلمات مدلهمة ، إذ ما سبق ذيّاك العهد لا يعود الى التاريخ ، ولو بالتكهن والرجم بالغيب

وهذا الرأي الذي يتبعهُ اليوم عدد غير يسير من جهابذة العلم . مخالف لفكر اقدم يستندهُ جهابذة التاريخ ، وعلى مقدمتهم اليوم المؤرخ والكاتب الفليع الاب لغرنج Lagrange الدومنكي . فقد قال ما معناهُ : [3]

---

(١) الحضارة هي ما يسمى اليوم بمعنى ضمنة الفقه بالثقافة اي culture والفصحاء لم يعرفوا هذه الكلمة بالمعنى الذي نشير اليه انما قالوا الحضارة (٢) شمر وزان زفر اي بضم فتح . هكذا قرأها العلماء العصريون عن الرقم المسمارية لا ان ثقة التاريخ من العربين رووا لنا الحرف المذكور بصورة « سومر » (بالعين المهملة ومنهم « سومار » بزيادة الف قبل الراء . وتحذلق بعضهم فرووهُ « سومر وم وسار وصرمير » الى ما لا نهاية له . والافرنج (لاسيما الانكليز) كانوا يكتبون اللفظ المذكور هكذا Shumer ولما اتفق المستشرقون على مقابلة كل حرف من الهجاء السامي بحرف من الهجاء الافرنجي اصطلحوا لكتابة الشين المنقطة اللفظ بحرف السين الافرنجية بعلامة تعلوهُ تشبه الرقم ٧ العربي . ولما كانت بعض المطابع الافرنجية خالية من العلامة ٧ فرق السين اهملوها . فاخذ اغلب القراء يلفظونها (سومر) Sumer على ان علماءهم لا يزالون يلفظونها بالشين . والحرف ة ليس في اللفظة ممدوداً بل مقصوراً اي ان الشين محركة بالضم على ما في التناوليس بالواو وكذلك القول في (اكد) فتها على وزن (بتم) اي بفتح الاول وفتح الثاني المشدد وليس إكاد او أقاد او أقد او نحو هذه المخلقات

(٣) راجع الكتاب المذكور الاب لغرنج « مباحث في الاديان السامية » الذي ذكرناه سابقاً ص ٢٤ وما يليها

قد يقع الريب وقوعاً صادقاً في المبدإ نفسه مبدإ النظرية [التي يشير اليها الدكتور هوغو ونكلر] ان المعيشة البدوية لا تأتي بنتاج الا اذا كانت الارض خصبة . ومن المبادئ المثبتة اثباتاً كافياً في الاقتصاد السياسي ، ان الناس لا يزدادون او يتوالدون ، في الفقر المدقع . وجانب عظيم من عربية ، لا يصلح للعيشة البدوية نفسها ، من ذلك فلوات الجنوب المعروفة بالدهناء ، ووالي وادي الفاصلة ديار الشام عن الجوف فانها لا تكاد تعبرها وصحراء الشام مشهورة بانها حمادٌ اي بانها صحراء كثيرة الحجارة وقاحلة ، الا انها دون غيرها يُبوسة ، ويأوي اليها قبائل جمة ؟ ومع ذلك لم يقم منها جماعة طارئة . واذا وقع بعض الاحيان ما يثبت خروج اقوام من ديار العرب ، فانهُ كان نتيجة ضغط حلَّ بهم ، لا نتيجة تدفق ، فلقد ظعَنَ بَدوٌ كثيرون بعد ان عضتهم السنة بأنيابها ، فاقتحموا الربوع الخضرة ، ولم يكن في امكان المتمدنين من دفعهم عنهم على الدوام ، فاحتلوها واقاموا فيها . فالاسلام نهض من الحجاز ومن الواجب علينا ان نحسب حساباً للدين لما فيهِ من الدافع المتين ، ولما كان لتجارة قريش من التفوق فضلاً عن انها كانت على جانب عظيم من السياسة والثبات . فكان اذاً يوعز لجزيرة العرب ذلك الدافع محتاناً متيناً دينياً ورؤساء : فالفتوحات الاسلامية لا تماثل في شيء غزوات الجرمان اذ كانت اشبه شيء بالامواج البشرية المتدفقة ...

واذا كان لابد من القول بتدفق من البشر ، فيجب علينا ان نبحث عنهُ في العراق العربي ... الذي تعتبرهُ المدونات التاريخية مهداً للساميين . ففي بدء التاريخ ، نرى الساميين قد احتلوهُ احتلالاً مكيناً . فهل هبطوا اليهِ من عربة ، وهل بيدنا ادلة تبيننا بانهم خلفوا فيهِ جيلاً اقدم منهم ؟ — تلك في معضلة الشعوبيين (١) اه

(لهُ تتمة) فؤاد الجابري

---

(١) كان سكان العراق الخالي ينقسم الى قسمين كبيرين : شمالي وجنوبي والشمال قسم منهما لغة مستقلة . واسم التصنيف الشمالي : اكد واسم التصنيف الجنوبي شمر . ومن معدن الجنوب : (اورو) أي (اور) و(اريدو) (واسم بقاياها اليوم هو أبو شهرين) وكانت مشهورة بعبادتها للصنم (آية) وبابل سليلتي وهو أركادية في الجنوب

ومن معدن الشمال : أورك (وكان اسمها في اول الامر « اوبو » ثم « اونج » وهي اوك المذكورة في التوراة وتعرف اطلالها في عهدنا هذا باسم الوركاه) واسم (هي سنكرة الحالية) ولجش (وهي تلو الحالية) وتبين اصلي الكلمة تل اللوح ثم مسخها منقبو الافرنج لصعوبة تلفظهم بالحاء فاسقطوها . ثم حذفوا منها لام التعريف فصارت تلو واليوم لا تعرف الا ببدا اللفظ المشوه (ملخص عن خلاصة تاريخ العراق منذ نشوئه الى يومنا هذا للاب انستاس ، وفي الكرملي)